جاه الأكارم

سلسلة مقالات صادرة عن صحيفة النبأ
التابعة للدولة الإسلامية

جمعهـــا
ثغر الشامي
عفا الله عنه

الطبعة الثانية
1446 هـ - 2024 م

جاه الأكارم

سلسلة مقالات صادرة عن صحيفة النبأ

التابعة للدولة الإسلامية

جمعهـــا

ثغر الشامي -عفا الله عنه-

الطبعة الثانية

١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٤ م



-الإيثار-

الحمد لله مجزل العطايا والهبات، والصلاة والسلام على نبي الهدى والمكرمات، وعلى آله وصحبه أولي النهى وأهل النجدات، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم جمع المخلوقات، وبعد:

فإن الأخلاق جمال الظاهر وإن كان الإنسان مبتذلًا، وهي ثروة من لا ثروة له، وجاه من لا جاه له، فصاحب الخلق في الدنيا موقّرٌ محبوبٌ، وفي الآخرة مُقرّبٌ محمود، والأخلاق الفاضلة مما بُعث به النبي ﷺ كما قال: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) [البيهقي]، والأخلاق حُلة الداعية، وصاحب الرسالة، فعامة الناس تقيس الدعوة بخلق صاحبها وتعامله، وها هنا طرق لبعض الأخلاق السامية التي تعتبر جاه الأكارم الميامين، وسيما الأفاضل الطاهرين، ويأتي في مقدمتها خلق الإيثار، وما أدراكم ما الإيثار..

الإيثار ‘‘فضيلة للنَّفس، بها يكفُّ الإنسان عن بعض حاجاته التي تخصُّه، حتى يبذله لمن يستحقُّه’’. [تهذيب الأخلاق لابن مسكويه]

والإيثار ‘‘أن يقدّم غيره على نفسه في النَّفع له، والدَّفع عنه، وهو النّهاية في الأخوة’’ [التعريفات للجرجاني].

فالإيثار هو أكمل أنواع الجود، وهو خلق لا يستطيعه إلا من كمل له الخلق الحسن، فإن بلوغ النفس إلى درجة تستغني فيها عن محبوباتها وملذاتها فتجود بها للغير، يتطلب فصولًا من المجاهدة تتساقط خلالها الأنفس الضعيفة.

قال ابن العربي –رحمه الله–: ‘‘الإيثار هو تقديم الغير على النّفس في حظوظها الدنيويّة رغبة في الحظوظ الدينيّة، وذلك ينشأ عن قوة اليقين وتوكيد المحبة، والصبر على المشقّة’’. [أحكام القرآن]

والحض على هذه الخصلة أكده القرآن في مواطن كثيرة، منها قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. [الحشر: ٩]

قال شيخ المفسرين الإمام الطبري –رحمه الله–: "يقول تعالى ذكره: وهو يصفُ الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ مِن قبل المهاجرين، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ يقول: ويعطون المهاجرين أموالهم إيثارًا لهم بِها على أنفسهم ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ يقول: ولو كان بهم حاجة وفاقة إلى ما آثَرُوا به مِن أموالهم على أنفسهم". [التفسير]

وقال ابن كثير: "أي: يقدِّمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدؤون بالنَّاس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك". [التفسير]

ويقول ابن تيمية: "وأمَّا الإيثار مع الخصاصة فهو أكمل مِن مجرَّد التَّصدق مع المحبَّة، فإنَّه ليس كلُّ متصدِّق محبًّا مؤثِرًا، ولا كلُّ متصدِّق يكون به خصاصة، بل قد يتصدَّق بما يحبُّ مع اكتفائه ببعضه مع محبَّة لا تبلغ به الخصاصة". [منهاج السنة]

وقال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

قال الطبري: "لن تنالوا أيها المؤمنون جنة ربكم حتى تنفقوا مما تحبون، يقول: حتى تتصدقوا مما تحبون وتهوَوْن أن يكون لكم، من نفيس أموالكم". [التفسير]

أما في السنة، فما جاء شيء في الترغيب بالإيثار أبلغ من تجسّده بالعمل بين صحابة رسول الله ﷺ، بعدما ربّاهم عليه وكان لهم قدوة صلوات الله وسلامه عليه، فعن جابر بن عبد الله –رضي الله عنهما– عن رسول الله ﷺ أنَّه أراد أن يغزو فقال: (يا معشر المهاجرين والأنصار إنَّ مِن إخوانكم قومًا ليس لهم مال ولا عشيرة، فليضمَّ أحدكم إليه الرَّجلين أو

الثَّلاثة، فما لأحدنا مِن ظهرٍ يحمله إلَّا عُقْبَةٌ كعُقْبَةِ). (يعني: أحدهم).'' فضممْتُ إليَّ اثنين أو ثلاثةً، قال: ما لي إلَّا عُقْبَةٌ كعُقْبَةِ أحدهم مِن جملي'' [رواه أبو داود].

فانظر أخي لمعاني الإيثار في الجهاد، رغم شدة حالهم وقلة مراكبهم يتعاقبون ركوب الجمال حتى لا يمشي المسافة كلها شخص على رجليه من طول الطريق.

ثم تذكر أخي القاعد، كيف جهادهم بالأمس وكيف جهاد اليوم؟ أي مشقة تلك التي كانوا يجدونها؟ ومع ذلك جاهد القوم وصبروا وآثر بعضهم بعضا.

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجرًا؟ قال: (أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت لفلان كذا، ولفلان كذا وقد كان لفلان). [البخاري]

قال ابن بطَّال: ''فيه أنَّ أعمال البرِّ كلَّما صعبت كان أجرها أعظم، لأنَّ الصَّحيح الشَّحيح إذا خشي الفقر، وأمَّل الغنى صعبت عليه النَّفقة، وسوَّل له الشَّيطان طول العمر، وحلول الفقر به، فمَن تصدَّق في هذه الحال، فهو مؤثر لثواب الله على هوى نفسه، وأمَّا إذا تصدَّق عند خروج نفسه، فيخشى عليه الضِّرار بميراثه والجوار في فعله''. [شرح الصحيح]

وأما ما جاء في قصة أحد تلاميذ المدرسة النبوية وهو أبو طلحة الأنصاري وزوجه – رضي الله عنهما– حيث جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ، فأرسل النبي ﷺ إلى أزواجه ليضيف هذا الرجل، فما كان عندهم إلا الماء، فقال ﷺ: (من يضيف هذا الليلة رحمه الله)، فقام رجلٌ من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: هل عندك شيءٌ؟ قالت: لا، إلّا قوت صبياني، قال: فعلّليهم بشيءٍ فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السّراج وأريه أنّا نأكل فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السّراج حتّى تطفئيه، فقعدوا وأكل الضّيف فلمّا أصبح، غدا على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: (قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما اللّيلة) [رواه مسلم]، والمراد بالعجب من الله تعالى أي: رضاه سبحانه بذلك الفعل. قال النووي في شرحه: ''وقد أجمع العلماء على فضيلة الإيثار بالطعام ونحوه من أمور

الدنيا، وحظوظ النفوس، وأما القربات فالأفضل أن لا يؤثر بها؛ لأن الحق فيها لله تعالى. والله أعلم''.

ومن ذلك أيضًا قول أم المؤمنين عائشة وفعلها مع عمر بن الخطاب -رضي الله عنهما-، حين أرسل إليها يستأذن في أن يدفن بجوار صاحبيه (النبي ﷺ وأبي بكر) فقالت: ''كنت أريده (أي موضع الدفن) لنفسي، فَلأوثِرَنَّهُ اليوم على نفسي''. ودُفنت هي بالبقيع -رضي الله عنها-.

وقد قسّم ابن القيم -رحمه الله- في كتابه [مدارج السالكين] الإيثار وجعله على ثلاث درجات:

''**الأولى**: أن تؤثر الخلق على نفسك فيما لا يخرم عليك دينًا، ولا يقطع عليك طريقًا -أي: إلى الله-، ولا يفسد عليك وقتًا، يعني أن تقدّمهم على نفسك في مصالحهم، مثل أن تطعمهم وتجوع، وتكسوهم وتعرى، وتسقيهم وتظمأ، بحيث لا يؤدّي ذلك إلى ارتكاب إتلاف لا يجوز في الدّين.

الثّانية: إيثار رضا الله على رضا غيره وإن عظمت فيه المحن، وثقلت فيه المؤن وضعف عنه الطّول والبدن، وإيثار رضا الله عزّ وجلّ على غيره: هو أن يريد ويفعل ما فيه مرضاته، ولو أغضب الخلق وهي درجة الأنبياء.

الثّالثة: أن تنسب إيثارك إلى الله دون نفسك، وأنّه هو الذي تفرّد بالإيثار لا أنت، فكأنّك سلّمت الإيثار إليه، فإذا آثرت غيرك بشيء؛ فإنّ الذي آثره هو الحقّ لا أنت فهو المؤثر على الحقيقة، إذ هو المعطي حقيقة. ا.هـ مختصرًا

فتأمل أخا الإسلام، إن كان هذا حال من آثر غيره ببعض محابِّ نفسه قد جاء مدحه بالقرآن والسنة، فكيف بالذي جاد بنفسه إيثارًا منه لتكون كلمة الله هي العليا؟، فآثر على نفسه الأمان ليأمن المسلمون، وفارق الأهل والخلان كي يدافع وينافح عن شريعة الرحمن،

وتحمّل في سبيل ذلك الجوع والعطش والجراح وتصبّر بطون السجون، كله إيثارًا لخدمة دين رب العالمين، فذا أمر قلّ مَن يستطيعه في هذا الزمان!

فإن هؤلاء يكابدون عناءً شديدًا على أنفسهم، فأردفهم الله عونًا منه، فهان كل شيء بأعينهم.

وكلما قوي جهاد العبد لنفسه، هداه الله السبيل وأرشده الطريق القويم، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

والمتصدق يجاهد النفس والهوى والشيطان ليُخرج صدقته، فما ظنك بالمجاهد كم سيجاهد غير هؤلاء الأعداء الثلاثة ليُوفّق للجهاد؟ فهناك علماء السوء والمخذلين والمثبطين والطاعنين، ومع ذلك لم تثنه عن الجود بنفسه؛ لِما قذف الله في قلبه من النور، فمضى راكبًا جواد الموت لا يلفت وجهه، فلقد جادت نفسه راضية تريد جوار الرحمن، هناك هناك حيث الجنة ونعيمها وأعلاه النظر لوجه الله الكريم، فهي دار من أنفق لوجه الله ما أحب، ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

***

-كظمُ الغيظ-

من المعلوم أن الشيطان يتربص بابن آدم، فهو لا يكاد يترك ثغرة إلا استغلها لإفساد دين العباد وحياتهم، ومن المواطن التي يحرص الشيطان دائمًا أن يكون حاضرًا فيها النزاعات والخصومات ليثير عندها غيظ ابن آدم وغضبه؛ لعلمه أن العقل حينها يصل لدرجة الإغلاق فيفقد المغتاظ السيطرة على جوارحه وانفعالاته؛ فيدفعه إلى شرور كثيرةٍ غير متوقعة كقتل النفوس بل يصل للكفر أحيانا –نعوذ بالله منه–.

وعِلْم الشيطان بهذه الخصلة في ابن آدم ليس وليد اليوم، بل منذ خلق اللهُ تعالى آدم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (لما صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به، ينظر ما هو، فلما رآه أجوف، عرف أنه خلق خلقا لا يتمالك). [صحيح مسلم]

ومعنى (لا يتمالك) أي: ليس لديه القدرة على أن يملك نفسه عند الغيظ والغضب، أو لا يملك نفسه، ويحبِسها عن الشهوات، أو لا يملك دفع الوسواس عنه، كما ذكر ذلك الإمام النووي –رحمه الله–، ومن هنا جاء الترغيب في القرآن في كظم الغيظ ووصف أصحاب هذا الفعل من المتقين المستحقين للجنة على فعلهم، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤]، فجعل من صفاتهم أنهم يكظمون الغيظ، ويعفون عمن ظلمهم.

الجارعون الغيظ!

قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسير قوله: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾، يعني: "والجارعين الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه، يقال منه: "كظم فلان غيظه" إذا تجرعه، فحفظ نفسه

من أن تمضي ما هي قادرة على إمضائه باستمكانها ممن غاظها، وانتصارها ممن ظلمها، وأصل ذلك من كظم القربة، يقال منه: ''كظمت القربة'' إذا ملأتها ماء، و'' فلان كظيم ومكظوم'' إذا كان ممتلئًا غمًا وحزنًا؛ ومنه قول الله عز وجل: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]، يعني: ممتلئ من الحزن، ومنه قيل لمجاري المياه: ''الكظائم'' لامتلائها بالماء، ومنه قيل: ''أخذت بكظمه ''يعني: بمجاري نفسه''. [تفسير الطبري]

وقال قتادة –رحمه الله–: ''قوم أنفقوا في العسر واليسر، والجهد والرخاء، فمن استطاع أن يغلب الشر بالخير فليفعل، ولا قوة إلا بالله، فنعمت والله يا ابن آدم الجرعة تجترعها من صبر وأنت مغيظ وأنت مظلوم''. [تفسير الطبري]

وهل هناك فرق بين الغضب والغيظ؟

ذكر بعض أهل العلم أن بينهما فرق، فمن ذلك أن الغضب يتبعه إرادة الانتقام، وليس الغيظ كذلك، وقيل: الغضب ما يظهر على الجوارح والبشرة من غير اختيار، والغيظ ليس كذلك، وقيل: هما متلازمان؛ إلا أن الغضب يصح إسناده إلى الله تعالى، والغيظ لا يصح فيه ذلك.

وبالعموم فإن من امتدحهم الله هم المتجرعون للغيظ، الممسكون عليه عند امتلاء نفوسهم منه؛ فلا ينقمون ممن يدخل الضرر عليهم، ولا يبدون له ما يكره، بل يصبرون على ذلك مع قدرتهم على الإنفاذ والانتقام.

ولقد أنار الله تعالى قلوب عباد له فكانوا وقّافين عند كلام رب العزة جل في علاه، أخبر الإمام القرطبي –رحمه الله– عن ميمون بن مهران –رحمه الله–: ''أن جاريته جاءت ذات يوم بصحفة فيها مرقة حارة، وعنده أضياف، فعثرت، فصبت المرقة عليه، فأراد ميمون أن يضربها، فقالت الجارية: يا مولاي استعمل قول الله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾، قال لها: قد فعلت، فقالت: اعمل بما بعده: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ

النَّاسِ﴾، فقال: قد عفوت عنك، فقالت الجارية: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، قال ميمون: قد أحسنت إليك، فأنت حرة لوجه الله تعالى". [تفسير القرطبي]

وجاء في السنة ما فيه ترغيب في تلك الخصلة الحميدة التي لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم، فعن سهل بن معاذ عن أبيه –رضي الله عنهما–: أن رسول الله ﷺ قال: (من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله عز وجل على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره الله من الحور العين ما شاء). [رواه أبو داود]

ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فهو صاحب الخلق الحسن والقلب السليم –بأبي هو وأمي–، قالت عائشة –رضي الله عنها–: "ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تُنتهك حرمة الله فينتقم لله بها". [صحيح البخاري]

والعفو أعظم أجرًا..

و إن كان كظم الغيظ عمن أساء إليك في نفسك محمودًا، فالعفو أعظم أجرًا وأطيب للنفس، ثم الإحسان للمسيء، فإنه أعلى مرتبة، وثماره أكثر وأعظم من العفو، إذ به –مع راحة النفس– كبت الشيطان وإغاظته، ثم امتلاك قلب المسيء وضمه ليكون لك نصيرًا بعد أن كان عدوًا، قال تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت: ٣٤]، ولأن هذا الخلق يحتاجه الداعية وصاحب الرسالة جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. [فصلت: ٣٣]

وقد قال ابن كثير في تفسير الآية الأولى: "﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه.

كما قال عمر -رضي الله عنه-: ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، وقوله: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ وهو الصديق، أي: إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك، والحنو عليك، حتى يصير كأنه ولي لك حميم أي: قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك". [التفسير]

ولأنه لا يقوم بهذا الخُلق إلا الندرة من الرجال وخواص الكرام، قال بعدها: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]، قال ابن كثير: "أي: وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك، فإنه يشق على النفوس، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والأخرى، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم". [التفسير]

فأي شيء أنفع لدعوتك من أن تجعل أعداءك أولياء ومحبين لك، فبذلك تستميل النفوس لدعوة الحق، وهذا من خلق النبي ﷺ ودأبه، وإن عامة المسلمين اليوم لطالما غُيّبوا عن كثير من أحكام الشرع وشوهت عندهم سُبل الهدى حتى أصبحوا في نفرة عنها وعن أهلها، وقد يجد من يدعوهم شيئًا من الأذى، وهنا يَجْمُل به كظم غيظه ودفع السيئة بالتي هي أحسن، وهكذا يملك المجاهد في دعوته زمام القلوب؛ لأن واجبه كيف يُخرج الناس من الظلمات إلى النور، فيرحم العباد ويحب هدايتهم ولو كرهوه، ويرجو لهم الرشاد وإن أبغضوه.

***

-الكلمة الطيبة-

الكلام فضل من الرحمن منّ به على بني الإنسان، ليفصحوا عما بداخلهم، ويعبروا عما يجول في خواطرهم لأقرانهم من مكنونات المحبة وتغيرات الأحوال وخلجات المشاعر، ومن ذلك أن النبي ﷺ أمر أتباعه أن لا يجعلوا مشاعر المحبة في صدورهم بل يفصحوا عنها؛ لما في ذلك من ترابط المحبة في الله، فعن أنس -رضي الله عنه- قال: "مرّ بالنبي ﷺ رجل فقال رجل: إني لأحبه في الله عز وجل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أأعلمته؟) قال: لا، قال: (فأعلِمه)، قال: فلقيت الرجل فأعلمته فقال: أحبك الله الذي أحببتني له" [الحاكم في المستدرك]، فإن كان الصمت يُحمد في حال، فالكلام الطيب يُحمد في كثير من الأحوال.

ولقد هدى الله تعالى عباده هداية من أجمل الهداية، فقال تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الحج: ٢٤]، فنعمت الهداية في القول الطيب، وطوبى لمن رزقه الله إياها ونال تلك المنزلة.

وإن الكلام الليّن يغسل الضغائن المستكنّة في النفوس، ويحوّل العدو اللدود إلى حميم ودود؛ لما في الكلام من أثر بالغ في تطييب الخواطر ومد جسور الود والمحبة، يقول وهب بن منبه -رحمه الله-: "ثلاث من كُنّ فيه أصاب البر: سخاوة النفس، والصبر على الأذى، وطيب الكلام".

يقولوا التي هي أحسن..

وكما في كل حال من الأحوال، يتربص العدو اللدود ببني آدم حتى عند المنطق وخروج الكلام، فقد أمرنا ربنا جل في علاه أن لا يخرج من أفواهنا سوى أحسن الكلام؛ تفاديًا لحصول الضغائن، والنزغات التي يمشي بها الشيطان بين العباد، قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِّعِبَادِي

يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

قال الإمام الطبري –رحمه الله–: "وقوله ﴿وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: وقل يا محمد لعبادي، يقل بعضهم لبعض التي هي أحسن من المحاورة والمخاطبة، كما حدثنا خلاد بن أسلم، قال: حدثنا النضر، قال: أخبرنا المبارك، عن الحسن في هذه الآية، قال: "التي هي أحسن، لا يقول له مثل قوله، يقول له: يرحمك الله يغفر الله لك". وقوله ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ يقول: إن الشيطان يسوء محاورة بعضهم بعضا ينزغ بينهم، يقول: يفسد بينهم، يهيج بينهم الشر، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ يقول: إن الشيطان كان لآدم وذرّيته عدوّا، قد أبان لهم عداوته بما أظهر لآدم من الحسد، وغروره إياه حتى أخرجه من الجنة". [تفسير الطبري]

الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة..

ولقد بين لنا ربنا جل في علاه في كتابه العزيز أهمية الكلمة الطيبة وعظيم أثرها واستمرار خيرها، كما بين لنا خطورة الكلمة الخبيثة وجسيم ضررها، يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾. [إبراهيم: ٢٤-٢٦]

وقيل في معنى الكلمة الطيبة هنا معانٍ عديدة منها: "لا إله إلا الله"، ومنها "المؤمن نفسه"، ومنها "العمل الصالح"، وقيل غيرها، وعلى كلٍ فالكلمة الطيبة تؤتي ثمرتها وفائدتها من محبة وتوقير وذكرٍ حسنٍ في كل وقت، سواء في حال وجود صاحبها أو غيابه، وكل من سمعها ناله شيء من حسنها، بخلاف الكلمة الخبيثة التي تؤذي قائلها ومن قيلت له ومَن سمعها، وتظل تطارد صاحبها أينما حل، وهي منبوذة لا قرار لها ولا قبول.

وقد يتعدى أثر الكلمة الطيبة لسائر العمل، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] قال البغوي في تفسيره: "يرفع العمل الصالح الكلم الطيب"، وقيل: "الكلم الطيب يرفع العمل الصالح"، فهذا تلازم بين قبول العمل والكلام الطيب، فقد يعمل المرء، ولا يجد لهذا العمل قبولًا عند الله؛ لخبث منطقه وسوء ملكته.

وللكلمة الطيبة أسرار في الدعوة إلى الله تعالى وأثر بالغ في قبول الحق، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، ولقد أوصى الله تعالى نبيه ﷺ أن لا يكون فظًا ولا غليظ القلب؛ لأن طباع البشر لا تقبل ذلك، فكان –عليه الصلاة والسلام– ألين الناس قلبًا للصغير والكبير والشريف والوضيع –بأبي هو وأمي ﷺ– ، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾. [آل عمران: ١٥٩]

وهذه الآية بين آيات الجهاد وكأنها تشير لعلاقة المجاهدين بعضهم ببعض ،باللين والعفو والدعاء بالمغفرة والمشاورة، فكلها عوامل تشد المجاهدين بعضهم ببعض وتزيد المحبة بينهم.

من فضائل الكلمة الطيبة..

وأخبر النبي ﷺ عن فضل الكلمة الطيبة وجعلها من سمات المؤمنين ومن صدقات الأبدان، قال ﷺ: (الكلمة الطيبة صدقة) [البخاري]، وإن الإيمان في قلب المؤمن هو المحرك الأول لقيادة الجوارح كلها لتنقاد إلى ما يرضي الله تعالى، وهذا حال المؤمنين المخلصين، إذ لن يستقيم للمرء حال حتى يستقيم قلبه، ولن يستقيم القلب إلا بالإيمان، فعن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي

جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت). [متفق عليه]

وقال عروة ابن الزبير –رحمه الله تعالى–: ''مكتوب في الحكمة: لتكن كلمتك طيبة وليكن وجهك بسطا تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء''. [حلية الأولياء]

ومما يحصّله العبد بالكلمة الطيبة أن يقي نفسه عذاب النار، فما أهون العمل وما أعظم الجزاء، قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: (اتّقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة).

وبالكلمة الطيبة يحظى المؤمن بالمغفرة؛ لقوله ﷺ: (إن من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام). [رواه الطبراني]

وهي سبب من أسباب دخول الجنان فعن أبي مالك الأشعري –رضي الله عنه– أن النبي ﷺ قال: (إن في الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وتابع الصيام، وصلى بالليل والناس نيام). [سنن البيهقي]

ومِن أدقّ آداب الكلم الطيب في القرآن، ما حثه سبحانه عباده على القول المعروف بعد العطاء، فقال: ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨] وشتان بين من يعطي العطية وهو صامت أو يقول: خذ، وبين من يتبعها بكلمة طيبة كقوله: هذه هدية محب لأخيه أو: مقامك رفيع وإنا لمثلك مقصرون، أو: بارك الله لك فيها، ونحو هذا الكلام، فلربما تكون تلك الكلمة أحسن عند الشخص من العطية ذاتها.

وثمار الكلام الطيب كثيرة يجنيها المرء الذي يحتسب أجرها في الدنيا قبل الآخرة، فالناس تميل لمن اتصف بلين وجمال الكلام، وتنفر ممن أغلظ وكان فظا على الدوام، والمرء بطبعه يحب اقتراب الناس منه وحسن معاشرتهم له، ولكنه قد لا يتنبه أحيانًا لكلمة يلقيها فتجرح أو تفضح ويخسر الكثير، أُثر عن لقمان الحكيم –رحمه الله– أنه قال: ''إن من

الكلام ما هو أشد من الحجر، وأنفذ من وخز الإبر، وأمرّ من الصبر، وأحرّ من الجمر، وإن من القلوب مزارع، فازرع فيها الكلمة الطيبة، فإن لم تنبت كلها ينبت بعضها".

لطيفة..

ومما لا بد أن يشار إليه، ما سخّره الله تعالى للخلق في هذا الزمان من أسباب التواصل التي تقرّب البعيد وتُدني المسافة، فالكتابة ميسورة والرسائل سريعة، فلا بد أن يراعي في هذا انتقاء الكلمات الطيبات وبعناية، بخلاف ما إذا كان المرء يقابل أخاه؛ لأن الابتسامة غائبة وتعابير الوجوه –وإن قلّدوها– غير حاضرة، فالعوض بحسن السوق للكلام وانتقاء ألفاظه والتأني فيه، لئلا يُفهم على خلاف مقصده.

نسأل الله تعالى أن يهدينا لأحسن الأقوال والأعمال، وأن يصلح لنا دنيانا وآخرتنا، وأن يهب لنا من لدنه رحمة، والحمد لله أولًا وآخرًا.

***

-حسن الظن-

إن ديننا الحنيف قد جاء بكل ما تصلح به القلوب والأبدان، وأي خلل في حياة العبد فسببه البعد عن المنهج القويم والتمسك بالأوامر والنواهي؛ لأن الله تعالى هو خالقنا وهو أعلم بما يُصلحنا، فأنزل في كتابه كل الأدوية الناجعة لأمراض الأنفس والقلوب، وفي هذا المقام نذكر داء يُتعب ويُضعف القلوب السليمة، وإن استرسل معه صاحبه فإن الشيطان يكرّ عليه مرة بعد أخرى حتى يُلحق به الهزيمة والتلف، ألا وهو سوء الظن بالمسلمين، الذي جاء ذمه مرات كثيرة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

"يقول تعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثمًا محضًا، فليجتنب كثير منه احتياطًا، وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه قال: ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيرًا، وأنت تجد لها في الخير محملًا". [تفسير ابن كثير]

كما أن سوء الظن يؤدي إلى تقطيع الصلات وذهاب المودة وتجذّر العداوة في القلوب السليمات، وهو لا يغني من الحق شيئًا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨] "أي: لا يجدي شيئًا، ولا يقوم أبدًا مقام الحق، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: (إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث). [تفسير ابن كثير]

وسوء الظن شبيه بسوء القول، فكما يحرم الحديث باللسان عن مساوئ المؤمن عند الغير، فلا يصح أيضًا تحديث النفس وإساءة الظن به، وذكر بعضُهم أن سبب تحريمه أن في القلوب أسرارًا لا يعلمها إلا الله تعالى، وليس لأحد أن يعتقد في غيره سوءًا لم ينكشف له، ولم يشاهده ولم يسمعه، وهو غالبًا إنما يلقيه الشيطان، فينبغي تكذيبه فإنه فاسق مفسد يسعى للتفريق بين المسلمين.

ويتأكد سوء الظن إذا كان المساء فيه، مسلمًا ظاهر الصلاح والعدالة، وتستقر تهمته في القلب حتى يعامل المسلمُ أخاه بحسبها وكأنها ثابتة!

فلا بد للمسلم إن أراد أن يسلم له إيمانه ويسعد قلبُه وبدنُه ويصلح ودّه مع أقرانه، أن يحسن الظن بهم ويجاهد نفسه على ذلك، فتصفو حياته ويسلم من الخواطر التي تؤذي نفسه وتتعب جسده.

ومما يُعين على إحسان الظن بإخوانك المسلمين، الاستشعار أنه من محاسن الأعمال الصالحة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (حسن الظن من حسن العبادة).
[رواه أبو داود وأحمد]

وأن يعلم أن من الحقوق التي للمسلم على أخيه المسلم أن يحسن الظن به، بل ومن الحرم التي لا ينبغي تجاوزها، فعن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-، قال: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة، ويقول: (ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله، ودمه، وأن نظن به إلا خيرًا) [رواه ابن ماجه].

وكان الإمام الشافعي -رحمه الله- يقول: "من أحب أن يختم له بخير، فليحسن الظن بالناس".

وقال بشر الحافي: "من سره أن يسلم، فليلزم الصمت وحسن الظن بالخلق".

ومن الأسباب المعينة على إحسان الظن أيضًا: الدعاء، وما أدراك ما الدعاء!

يُستدفع به سائر البلايا والأدواء، ويأتي به العون من رب الأرض والسماء، فادع الله ربك جل في علاه أن يرزقك قلبًا سليمًا لا يظن بالمسلمين إلا خيرًا، فمِن أدعية النبي ﷺ: (اللهمَّ أسألُكَ قلبًا سليمًا) [رواه أحمد]، ومتى كان القلب سليمًا صلحت سائر الجوارح، ولم يجد الشيطان حينئذ ثغرة كي يوغر صدر صاحب ذلك القلب على المسلمين.

ومن الأسباب التي يستجلب بها حسن الظن: أن يذكر المرء نفسه أنه إن جعل سوء الظن ديدنه وطبيعة لا تفارقه؛ سينفضّ المسلمون عنه، والعبد لا يقدِر على فقْدِ عِشرَة الأقران، والنفوس مجبولة على حب من يلتمس لها الأعذار ولا يأخذ عنها سيئ الأخبار، فبذلك يردع المرء نفسه، قال أبو حاتم بن حبان البستي في روضة العقلاء: "الواجبُ على العاقل لزوم السلامة بترك التجسس عن عيوب الناس، مع الاشتغال بإصلاح عيوب نفسه؛ فإن من اشتغل بعيوبه عن عيوب غيره أراح بدنَه ولم يُتعب قلبَه، فكلما اطَّلع على عيب لنفسه هان عليه ما يرى مثله من أخيه، وإن من اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه عميَ قلبُه وتعب بدنُه وتعذَّر عليه ترك عيوب نفسه".

وإن رُزق الإنسان بأخٍ صالح يذكّره إن زلّ فتلك نعمة عظيمة، قال سفيان بن حسين: "ذكرت رجلًا بسوء عند إياس بن معاوية، فنظر في وجهي، وقال: أغزوتَ الرومَ؟ قلت: لا، قال: فالسِّند والهند والترك؟ قلت: لا، قال: أفَتسلَم منك الروم والسِّند والهند والترك، ولم يسلَمْ منك أخوك المسلم؟! قال: فلَم أعُد بعدها". [البداية والنهاية]

ولا بد من الاجتهاد على النفس بتدريبها على إحسان الظن، وهذا ما كان النبي ﷺ يعلّمه أصحابه، من ذلك عندما جاءه أعرابي أساء الظن بامرأته لما رُزق منها بمولود أسمر، فقال: يا رسول الله، إن امرأتي ولدت غلاما أسودَ وإني أنكرته، فقال له النبي ﷺ: (هل لك من إبل؟ قال: نعم، قال: ما ألوانها؟ قال: حمر، قال: فهل فيها من أورق؟ قال: نعم، قال رسول الله ﷺ: فأنى هو؟ قال لعله يا رسول الله يكون نزعه عرق له، فقال له النبي ﷺ: وهذا لعله يكون نزعه عرق له). [متفق عليه]

وقال بكر بن عبد الله المزني: "إيَّاك من الكلام ما إن أصبتَ فيه لَم تُؤجَر، وإن أخطأت فيه أثمت، وهو سوء الظنِّ بأخيك" [تهذيب التهذيب]، وقال ابن سيرين رحمه الله: "إذا بلغك عن أخيك شيء فالتمس له عذرا، فإن لم تجد فقل: لعل له عذرا لا أعرفه"، وها هو الإمام الشافعي رحمه الله حين مرض وأتاه بعض إخوانه يعوده، فقال

للشافعي: قوى الله ضعفك، فقال الشافعي: لو قوى ضعفي لقتلني، قال: والله ما أردتُ إلا الخير، فقال الإمام: أعلم أنك لو سببتني ما أردت إلا الخير!

فهكذا تكون الأخوة بين المسلمين وهكذا تدوم حبال الود بينهم، بقلوب سليمة نقيّة ليس للشيطان عليها سبيل.

***

-النصيحة-

الدين النصيحة، منهجٌ نبويٌ ونظام صفاءٍ وتكاتفٍ جماعيٍ جاءت به الشريعة، ليتدارك المسلمون بعضَهم حين يزلّ أحدهم؛ لأنه لا يكفي الاقتصار على صلاح النفس فقط، فالمؤمن مرآة أخيه، وهو من باب محبة الخير للناس وهو من كمال الإيمان، قال ﷺ (لا يؤمن أحدكم حتى يُحب لأخيه ما يحب لنفسه). [البخاري ومسلم]

ولأهمية النصيحة بين المسلمين؛ بايع بعض الصحابة رسول الله ﷺ عليها، فعن جَريرِ بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنه قَال: "بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم" [متفق عليه]، وعن تَميم الدَّاريّ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (الدين النصيحة قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم). [متفق عليه]

قال ابن الأثير رحمه الله: "نَصيحةُ عامّةِ المسلمين: إرشادُهم إلى مصالِحِهم" [النهاية في غريب الحديث].

ويقصد بالنُّصح أيضًا: تحري فِعل أو قول فيه صلاح صاحبه، أو هو إخلاص العمل عن شوائب الفساد، أمَّا النصيحة: فهي الدُّعاء إلى ما فيه الصلاح، والنَّهي عمَّا فيه الفساد. [التعريفات للجرجاني]

وأنصح الخلق للخلق هم الأنبياء عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم، الذين تحملوا أذى أقوامهم في سبيل إخراجهم من الشرك إلى توحيد رب العالمين، الذي فيه في نجاتهم وصلاحهم في الدنيا والآخرة، فنبي الله نوح عليه الصلاة والسلام خاطب قومه قائلًا لهم: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]، وهذا هود عليه السلام يقول لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

والنصح أحد حقوق المسلم على أخيه المسلم، قال رسول الله ﷺ: (حقُّ المسلم على المسلم سِتٌّ، قيل: ما هنَّ يا رسول الله؟ قال: إذا لقيتَه فسلِّم عليه، وإذا دعاك فأجِبه، وإذا

استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد اللهَ فشمِّته، وإذا مرِض فعُدْه، وإذا مات فاتَّبعه).
[رواه مسلم]

بل ولِما في النصيحة من أثر عظيم متعدٍ لسائر الناس، لم تكن مقتصرة على الحر دون العبد المسلم، قال النبي ﷺ: (إذا نَصح العبدُ سيِّدَه وأحسن عبادة ربِّه، كان له أجرُه مرَّتين). [أخرجه البخاري]

من آداب النصيحة..

وللنصح آداب لا بد أن يتحلى بها الناصح الشفيق ما أمكن؛ كي يُقبل منه الخير الذي أراد إيصاله بالنصيحة، قال الحافظ ابن رجب -رحمه الله-: "وأما النصيحة للمسلمين: فأنْ يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، ويشفق عليهم ويرحم صغيرهم، ويوقر كبيرهم، ويحزن لحزنهم، ويفرح لفرحهم، وإنْ ضره ذلك في دنياه، كرخص أسعارهم، وإنْ كان في ذلك فوات ربح ما يبيع في تجارته، وكذلك جميع ما يضرهم عامة، ويحب ما يصلحهم، وألفتهم، ودوام النعم عليهم، ونصرهم على عدوهم، ودفع كل أذى ومكروه عنهم، وقال أبو عمرو بن الصلاح: النصيحة كلمة جامعة تتضمن قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادةً وفعلًا". [جامع العلوم والحكم]

ومن آداب النصيحة، قول ابن رجب أيضًا: "فإذا أخبر الرجل أخاه بعيب ليَجتنبه، كان ذلك حَسَنًا لمن أُخْبِر بعيبٍ من عيوبه أن يعتذر منها إنْ كان له منها عذرٌ، وإنْ كانَ ذلك على وجه التوبيخ بالذنب، فهو قبيحٌ مذمومٌ، وكان السَّلَف يَكرهون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في العَلَن، ويحبُّون أن يكون سرًّا فيما بين الآمر والمأمور؛ فإن هذا من علامات النُّصْح، فإن الناصح ليس له غرض في إشاعة عيوب مَنْ ينصح له؛ وإنما غرضه إزالة المفسدة التي وقع فيها، فشتَّان بين مَنْ قَصْده النصيحة وبين مَنْ قَصْده الفضيحة، ولا تلتبس إحداهما بالأخرى إلَّا على مَنْ ليس من ذوي العقول الصحيحة، ومِنْ أظهرِ التعييرِ

إظْهارُ السوء، وإشاعتُه في قالبِ النُّصْح، وزعْمُ أنه إنما يحمله على ذلك العيوب؛ إمَّا عامًّا أو خاصًّا، وكان في الباطن إنما غرضُه التعيير والأذى، ومَنْ بُلِيَ بشيء مِنْ هذا المكْر، فليتَّقِ الله، وليستعِنْ به ويصبر؛ فإن العاقبة للتقوى، والواقع يشهد بذلك، فإنَّ مَنْ سَبَرَ أخبار الناس، وتواريخ العالم، وَقفَ على أخبار مَنْ مَكَرَ بأخيه، فعاد مَكْرُهُ عليه، وكان ذلك سببًا لنجاته وسلامته على العجب العُجاب".

الفرق بين التعيير والنصح..

كما أن الناصح لا بد أن يضع بحسبانه أنه وكما يحب أن يُنصح بالسر، فهذا ينطبق على غيره من المسلمين أيضًا، فما من أحد إلا ويحب أن يُنصح سرًا، قال ابن رجب –رحمه الله–: "كان السَّلفُ إذا أرادوا نصيحةَ أحدٍ، وعظوه سرًا، حتّى قال بعضهم: مَنْ وعظ أخاه فيما بينه وبينَه فهي نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الناس فإنّما وبّخه.

وقال الفضيل: المؤمن يَسْتُرُ ويَنْصَحُ، والفاجرُ يهتك ويُعيِّرُ". [جامع العلوم والحكم]

وقال ابن حزم –رحمه الله–: "إذا نصحت فانصح سرًا لا جَهرًا، وبتعريض لَا تَصْرِيح، إِلَّا أن لا يفهم المنصوح تعريضك، فَلَا بدُ من التَّصْرِيح... فَإِن تعديت هَذِه الْوُجُوه فَأَنت ظَالِم لَا نَاصح". [الأخلاق والسير]

إلا إذا اقتضت المصلحة أن يجهر بالنصح أمام الملأ في حال كان الأمر يخص رد شبهة أو بدعة دعى الحال للجهر بها كي يتبين الحق من الباطل؛ فهنا يكون الجهر مشروعًا في حق الناصح.

قال ابن رجب رحمه الله: "إن كان مقصوده مجرد تبيين الحق، ولئلا يغتر الناس بمقالات من أخطأ في مقالاته: فلا ريب أنه مثاب على قصده، ودخل بفعله هذا بهذه النية في النصح لله ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم". [الفرق بين النصيحة والتعيير]

ومن آداب النصيحة: أن يختار العبارات اللينة، وكلٌ على حسب حاله والأصل في النصح أن يكون باللين، قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، وهذا خطاب من الله لنبيه موسى عليه السلام لطريقة خطاب فرعون الذي طغى وكان يقول: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾، وقد كان في علم الله إعراض فرعون وتكذيبه، ولكن الله أراد أن يؤدب أولياءه ويدلهم إلى طريقة النصح وإقامة الحجة، ولا شك أن من كان أقل حالًا من فرعون طغيانًا وجبروتًا كان أولى باللين في الخطاب والنصح.

ومن آداب النصيحة كتمان السر للمسلمين –وهذا إن لم يتعلق الأمر بشيء من أمور المسلمين العامة، فإن كان كذلك كفساد في العقيدة والدين وجب إفشاؤه للتحذير منه– ولا بد أن يستند في ذلك على شيء يقيني هو متأكد من حدوثه فيمن عزم على نصحه، لا على أمور ظنية وأوهام لا حقيقة لها؛ وذلك لتكون النصيحة في مكانها.

لا تنصح على شرط القبول!

ومن آداب النصيحة أن يضع بحسبانه أن الصبر بمثابة الرأس للجسد في الأمور كلها، وأن يتوقع أسوأ الردود ولو كانت نصيحته نابعة عن محبة وإرادة للخير للمنصوح، فالأنفس تختلف في استقبالها وردها، وما دام أنه أراد وجه ربه جل في علاه فسيكون لها أثر ولو بعد حين بإذن الله، قال ابن حزم –رحمه الله–: "لا تنصحْ على شرط القَبول، ولا تشفعْ على شرط الإجابة، ولا تَهَب على شرط الإثابة، لكن على سبيلِ استعمالِ الفضل وتأديةِ ما عليك من النصيحة والشفاعة وبذلِ المعروف". [الأخلاق والسير]

كما أنه لا بد من تحري الوقت المناسب للنصيحة، قال ابن مسعود –رضي الله عنه–: "إن لهذه القلوب شهوة وإقبالًا، وإن لها فترة وإدبارًا، فخذوها عند شهوتها وإقبالها، وذروها عند فترتها وإدبارها". [رواه ابن المبارك في الزهد]

-الرفق-

قسمَ الله سبحانه وتعالى الأخلاق كما قسم الأرزاق، فمن رُزقها فإنما رُزق خيرًا كثيرًا، فليحمد الله، ومن لم يُعطها فليسعَ إليها كما يسعى لطلب الرزق، فما الرزق بأولى أن يسعى له العبد من الأخلاق، وكما قيل: إنما العلم بالتعلّم، والحلم بالتحلّم، ومن يتحرَّ الخيرَ يُعطه، ومن يتوقّ الشر يُوقَه.

ومن أجلّ أخلاق الأكارم وجاههم خلق الرفق، ذاكم الخلق الرفيع الذي يبلغ بأصحابه المنازل، وتصلح به الأمور، وتدرك به مفاتيح الأشياء، فكم من مشاكل شائكة كان علاجها في الرفق، وكم من أناس ما استُمكن منهم إلا بالرفق، وكم من ملك ساس قومه بالرفق فقاد أولهم وآخرهم أحسن قياد، فكل موفق رائد يشار له بالبنان يكون الرفق له رفيقا، وما أحد من الخلفاء الراشدين إلا وكان إماما في الرفق.

الرفق من صفات الله تعالى..

ويكفي للرفق منزلة أنه من صفات ربنا المتعال جل جلاله، قال النبي ﷺ: (إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق مالا يعطي على العنف) [رواه مسلم]، قال النووي: "ومعنى يعطي على الرفق أي يثيب عليه ما لا يثيب على غيره". [شرح صحيح مسلم]

فهو من الأعمال التي يحبها الله من عباده، وإنه تعالى يعطي عليه –ولا عطاء كعطائه سبحانه– ما لا يعطي على ما سواه من الثواب والجزاء، فمن إذن يرغب عن عطاء الله تعالى؟!

والرفق يدخل في كل شيء ويزينه ويحسّنه ويُصلحه، قال النبي ﷺ: (لم يدخل الرفق في شيء إلا زانه، ولم ينزع من شيء إلا شانه) [أحمد]، وقوله: ''شيء'' عامة تشمل المعاملة والكلام والتعليم والتكليف والعقاب، وتشمل بني آدم والمتاع والدواب، فكلٌ يزينه الرفق، وإن فُقد الرفق من شيء كان قبيحًا ومشينًا، قال ﷺ: (من يُحرم الرفق يُحرم الخير). [مسلم]

يسّروا وبشّروا وتطاوعوا..

وإن حضور الرفق بين القوم لهو دليلٌ أن الله يريد بهم الخير، قال النبي ﷺ: (إذا أراد الله بأهل بيت خيرا أدخل عليهم الرفق). [مكارم الأخلاق للطبراني]

ولحاجة المبلّغ لهذا الدين إلى الرفق من معلّم أو أمير أو مجاهد، فقد أرشد النبي ﷺ أمثالهم إليه، فهذان الصحابيان الجليلان أبو موسى الأشعري ومعاذ بن جبل – الله عنهما– ، بعثهما النبي ﷺ إلى اليمن فقال: (يسّرا ولا تعسّرا، وبشّرا ولا تنفّرا، وتطاوعا ولا تختلفا). [البخاري ومسلم]

فهذه وصية مهمة ''التيسير والتبشير''، التيسير لأمور الشرع وتكاليفه التي ربما يراها بعض الناس عسيرة صعبة لا يمكن إدراكها ولا تأديتها، فتُيسّر عليهم وتُهوّن، وتُعطى بأحسن طريقة وفي أنسب وقت، مع التبشير بما أعدّ الله لفاعلها من عظيم الجزاء في الآخرة، فإنه أنشط للعمل وأدعى للقبول.

ونهاهما عن ''التعسير والتنفير'' أي: تعسير الأمور لعامة المسلمين وتكليفهم ما لا طاقة لهم به، أو تهويل وتعظيم ما هو يسير من أمور الشرع أو أحوال الناس في دنياهم وحاجاتهم، فيفضي ذلك إلى تنفيرهم.

قال النووي –رحمه الله–: ''وفي هذا الحديث الأمر بالتبشير بفضل الله وعظيم ثوابه وجزيل عطائه وسعة رحمته، والنهي عن التنفير بذكر التخويف وأنواع الوعيد محضة من غير

ضمها إلى التبشير، وفيه تأليف مَن قرُب إسلامه، وترْك التشديد عليهم، وكذلك مَن قارب البلوغ من الصبيان ومَن بلغ، ومَن تاب مِن المعاصي، كلهم يُتلطف بهم ويدرجون في أنواع الطاعة قليلًا قليلا، وقد كانت أمور الإسلام في التكليف على التدريج، فمتى يُسّر على الداخل في الطاعة أو المريد للدخول فيها؛ سهلت عليه وكانت عاقبته غالبا التزايد منها، ومتى عُسّرت عليه أوشك أن لا يدخل فيها، وإن دخل أوشك أن لا يدوم، أو لا يستحليها''. [شرح صحيح مسلم]

وقد أرشدهما النبي ﷺ لهذا لأنهما يليان أمر الناس والمسؤولية عنهم، ومن وُلي أمر الناس كان القول له آكد من غيره، فقد جاء في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: (اللهم مَن ولي مِن أمر أمتي شيئًا فشقّ عليهم فاشقق عليه، ومَن ولي مِن أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به)، قال النووي: ''هذا من أبلغ الزواجر عن المشقة على الناس، وأعظم الحث على الرفق بهم وقد تظاهرت الأحاديث بهذا المعنى''.

الحلم والأناة..

ويدخل في الرفق أيضا الحلم والأناة، فهاتان الصفتان يحبهما الله كما يحب الرفق، وقد أثنى النبي ﷺ على أشج عبد القيس حين قدم مع وفده للمدينة على رسول الله ﷺ، فقال له النبي ﷺ: (إن فيك خصلتين يحبهما الله؛ الحلم والأناة). [مسلم]

فالحلم هو العقل، وهو أيضًا العفو عند المقدرة، فحيثما استطاع الإنسان الانتقام لنفسه لكنه ترك ذلك مع مقدرته فهو حليم، والأناة هي التؤدة والرويّة وعدم الاستعجال في الأمور.

والعجلة وإنْ كانت من طبيعة ابن آدم وفطرته كما قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، إلا أنها أبعد عن الصواب؛ لأنها من الشيطان، وقال عمرو بن العاص

-رضي الله عنه-: "لا يزال المرء يجتني من ثمرة العجلة الندامة"، إلا إنْ كانت العجلة في أمر الآخرة والمسارعة في الخيرات فهنا تكون محمودة ، قال النبي ﷺ: (التؤدة في كل شيء إلا في عمل الآخرة). [رواه أبو داود]

والقرآن يحث على المسارعة والتعجيل في أمور البر وأعمال الآخرة، كقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

والرفق خلق النبي ﷺ، بل كان من هديه عليه الصلاة والسلام التيسير على أمته ما استطاع إلى ذلك، قالت عائشة -رضي الله عنها-: "ما خُيّر رسول الله ﷺ بين أمرين أحدهما أيسر من الآخر إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه". [متفق عليه] فحيث لا يكون إثم، ولا ضعف أو مداهنة في الدين، ولا ورود للشبهات، فالرفق سنة النبي ﷺ.

رفق النبي ﷺ..

ومن أمثلة رفقه ﷺ، قصة الأعرابي الذي بال في المسجد، فقاموا إليه، فقال رسول الله ﷺ: (لا تزرموه)، ثم دعا بدلو من ماء فصبّ عليه. [البخاري]، وفي رواية عند النسائي أنه قال: (دعوه، وأهريقوا على بوله دلوا من ماء؛ فإنما بُعثتم ميسّرين ولم تبعثوا معسّرين).

ومن ذلك أيضًا قصة معاوية بن الحكم السلمي -رضي الله عنه-، لما جاء وصلى مع النبي ﷺ، ولم يكن يعلم أن الكلام قد نُهي عنه في الصلاة، قال: بينما أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم فقلت واثكل أمياه ما شأنكم تنظرون إلي؟! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم

يُصمِّتُونني لكني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي ما رأيت معلّمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال: (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن). [مسلم]

وبالرفق يسلم الإنسان من الانتصار لنفسه حينما يُرشد غيره، فإن الغاية هي أن يؤخذ بالحق ويبُيّن، لا أن يُحوّل الأمر لخصومة شخصية فتخرج عن طابعها الأصلي.

***

-الحياء-

لكل شيء رأس، ورأس الأخلاق ما كان خير كله وهو الحياء، فمن رُزِقَهُ مَلَك زمام بقية الأخلاق الطيبة، ومن عجز عنه تعسّرت عليه الفضائل، وزلت قدمه في مستنقع الأخلاق الذميمة، وهو من مكارم الأخلاق التي تضفي على عيش عباد الله فيما بينهم وُدًّا ومحبة، فتُحجز القلوب من الأحقاد والضغائن، والحياء خصلة من خصال الإيمان، وخلق في الإسلام محمود، فمن تحلى به حسُن له إسلامه، وسمت بالعلياء أخلاقه، وهجر المعاصي والمنكرات استحياء من رب الأرض والسموات، وأقبل على طاعة الإله محبة وتعظيمًا.

والحياء يكسو صاحبه وقارًا واحترامًا، فيصرف عنه أذى السفهاء، ويكف عنه عتاب العقلاء، وهو صفة من صفات الأنبياء، ومن سار على نهجهم من عباد الله الأتقياء، وهو في أخلاق الرجال جميل، وفي أطباع النساء لازم تمتاز به الصالحات البتول، واكتسابه يغطي كل معيب، وضياعه يظهر كل قبيح.

وقيل في معنى الحياء أنه "الحشمة، ضد الوقاحة، ... وهو الانقباض والانزواء" [لسان العرب]، وقيل أيضًا أنه: "انقباض النَّفس مِن شيءٍ وتركه حذرًا عن اللَّوم فيه" [التعريفات للجرجاني]، وقال ابن حجر: "الحَياء خُلُق يبعث صاحبه على اجتناب القبيح، ويمنع مِن التقصير في حقِّ ذي الحقِّ". [فتح الباري]

ولقد جاء في كتاب الله تعالى امتداح الحياء فقال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فقد فسره بعض العلماء بأنه الحياء.

حياء النبي ﷺ..

وقد عُرف نبينا ﷺ بالحياء حتى قيل عنه أنه "أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئا عرفناه في وجهه". [متفق عليه] فحياؤه أشد من حياء الفتاة البكر، وإن كره الشيء لا يتكلّم، وإنما يُعرف ويُفهم من تغيّر وجهه ﷺ.

ومن صور حيائه عليه الصلاة والسلام قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، قال ابن كثير: "قيل: المراد أنَّ دخولكم منزله بغير إذنه، كان يشُقُّ عليه ويتأذَّى به، لكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك مِن شدَّة حَيَائه عليه السَّلام، حتى أنزل الله عليه النَّهي عن ذلك". [التفسير]

وإن الحياء قديم في بني البشر منذ أبيهم آدم عليه السلام، والحياء مأمور به، وتركه منهي عنه، فعن أبي مسعود البدري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (إنَّ ممَّا أدرك النَّاس مِن كلام النُّبوَّة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت) [رواه البخاري]، قال الخطَّابي: "قال الشَّيخ: معنى قوله: (النُّبوَّة الأولى) أنَّ الحَيَاء لم يزل أمره ثابتًا، واستعماله واجبًا منذ زمان النُّبوَّة الأولى، وأنه ما مِن نبيٍّ إلَّا وقد نَدَب إلى الحَيَاء وبُعِث عليه، وأنَّه لم ينسخ فيما نسخ مِن شرائعهم، ولم يُبَدَّل فيما بُدِّل منها". [معالم السنن للخطَّابي]

خصلة من خصل الإيمان..

والحياء خصلة من خصال الإيمان فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الإيمان بضع وستون -وفي رواية وسبعون- شعبة، والحياء شعبة من الإيمان) [متفق

عليه]، قال الخطَّابي: معنى قوله: (الحَيَاء شعبة مِن الإيمان) ''أنَّ الحَيَاء يقطع صاحبه عن المعاصي ويحجزه عنها، فصار بذلك مِن الإيمان''. [معالم السنن]

وقال ابن القيِّم: ''خُلق الحَيَاء مِن أفضل الأخلاق وأجلِّها وأعظمها قدرًا وأكثرها نفعًا''. [مفتاح دار السَّعادة]

وعن عمران بن حصين -رضي الله عنهما- قال: قال النَّبيُّ ﷺ: (الحَيَاء لا يأتي إلَّا بخير) [متفق عليه]، قال ابن رجب: ''(الحياء لا يأتي إلَّا بخير): فإنَّه يكفُّ عن ارتكاب القبائح ودناءة الأخلاق، ويحثُّ على استعمال مكارم الأخلاق ومعاليها، فهو مِن خصال الإيمان بهذا الاعتبار''. [جامع العلوم والحكم]

ولما حاز الحياء مكانة عالية وصف كله بالخيرية، فعن النبي ﷺأنه قال: (الحياء خير كله)، أو قال: (الحياء كله خير). [مسلم]

وقد روي عن عمر -رضي الله عنه- أنه قال: من استحيا اختفى، ومن اختفى اتقى، ومن اتقى وُقي.

وقد نرى البعض يذم غيره لشدة حيائه، وهذا مجانب للصواب، فعن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-، أن النَّبي ﷺ مرَّ على رجل، وهو يعاتب أخاه في الحياء، يقول: إنَّك لتستحِيي حتى كأنَّه يقول: قد أضرَّ بك، فقال رسول الله ﷺ: (دعه، فإنَّ الحياء مِن الإيمان). [رواه البخاري]

قال ابن بطَّال: ''معناه أنَّ الحَيَاء مِن أسباب الإيمان وأخلاق أهله؛ وذلك أنَّه لما كان الحَيَاء يمنع مِن الفواحش، ويحمل على الصَّبر والخير، كما يمنع الإيمان صاحبه مِن الفجور، ويقيِّده عن المعاصي، ويحمله على الطَّاعة، صار كالإيمان لمساواته له في ذلك، وإن كان الحَيَاء غريزة، والإيمان فعل المؤمن، فاشتبها مِن هذه الجهة''. [شرح البخاري]

ومن أبواب الحياء في المجلس: حياء الصغير عند الكبير، وحياء الجاهل عند العالم، والولد عند والديه، فإنه من حسن الأدب، قال ابن عمر -رضي الله عنهما-: قال رسول الله ﷺ: (أخبروني بشجرة مثلها مثل المسلم، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ولا تحت ورقها)، فوقع في نفسي أنها النخلة، فكرهت أن أتكلم وثَمّ أبو بكر وعمر، فلما لم يتكلما قال النبي ﷺ: (هي النخلة)، فلما خرجت مع أبي قلت يا أبتاه، وقع في نفسي أنها النخلة، قال: ما منعك أن تقولها، لو كنت قلتها كان أحب إلي من كذا وكذا. قال: ما منعني إلا أني لم أرَك ولا أبا بكر تكلمتما، فكرهت. [متفق عليه]

استحيوا من الله حق الحياء!

وأعظم الحياء أن يستحي العبد من ربه، فذاك المقام الأسمى والدرجة الأعلى، ومن عرف ربه حقيقة استحي منه، فعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (استحيوا مِن الله حقَّ الحياء). قال: قلنا: يا رسول الله، إنَّا لنستحيي، والحمد للَّه. قال: (ليس ذاك، ولكنَّ الاستحياء مِن الله حقَّ الحياء: أن تحفظ الرَّأس وما وعى، وتحفظ البطن وما حوى، وتتذكَّر الموت والبِلَى، ومَن أراد الآخرة، ترك زينة الدُّنيا، فمَن فعل ذلك، فقد استحيا مِن الله حقَّ الحياء). [رواه الترمذي]

قال ابن رجب: "يدخل فيه حفظ السَّمع والبصر واللِّسان مِن المحرَّمات، وحفظ البطن وما حوى يتضمَّن حفظ القلب عن الإصرار على ما حرَّم الله، ويتضمَّن أيضًا حفظ البطن مِن إدخال الحرام إليه مِن المآكل والمشارب، ومِن أعظم ما يجب حفظه مِن نواهي الله عزَّ وجلَّ اللِّسان والفرج" [جامع العلوم والحكم].

"ويروى عن معاذ أن النبي ﷺ وصّاه لما بعثه إلى اليمن، فقال: (استحْي من الله كما تستحي من رجل ذي هيبة من أهلك).

وسئل النبي ﷺ عن كشف العورة خاليًا، فقال: الله أحق أن يستحيا منه". [جامع العلوم والحكم]

ولِمَ لا يستحي العبد من ربه وربُه هو الحيي سبحانه! قال ﷺ: (إن الله حَيِيٌ سِتّير يحب الحياءَ والستر). [الآداب للبيهقي]

في حق النساء أولى!

وإن أُمر الرجال بالحياء فهو في حق النساء أولى بلا شك، فمما جاء في حياء النساء، قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥]، قال مجاهد: "يعْني: واضعةً ثوبها على وجهها ليست بخرَّاجةٍ ولا وَلّاجةٍ" [تفسير مجاهد]، وروى ابن جرير عن عمر -رضي الله عنه-، قال: "واضعة يدها على وجهها مستترة".

وهذا الأصل في النساء أن يكنّ رمزًا في الحياء، وإنّ شرع الله ليحث النساء على الحياء ويؤاخذهن به؛ لما في ذلك من صيانة للمجتمع المسلم من الفواحش والفجور.

***

-الصمت-

فالخطايا يركب بعضها بعضًا، ومن رام اجتناب أعلاها فعليه دفع أدناها، وسدّ بابها الأول، وقد جاء عن الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه أوصى أحد عماله وولاته وهو الأحنف بن قيس، فقال له: "مَن كثر ضحكه قلت هيبته، ومَن كثر مزاحه استخف به، ومَن أكثر من شيء عُرف به، ومَن كثر كلامه كثر سقطه، ومَن كثر سقطه قلّ حياؤه، ومَن قلّ حياؤه قلّ ورعه، ومَن قلّ ورعه مات قلبه". [شعب الإيمان]

ومِن طرق سدّ الشر الأخذ بخلق الصمت، الذي يعتبر علاجًا للكثير من مصائب الكلام وسقطات اللسان، وهو سمة أهل النهى والألباب، ومنقبة للأبرار الأخيار، كما أن تركه وإكثار الكلام مذمّة ودليل جهل وخفة عقل، وباب استدراج لمعاصي الأقوال وسوءِ الأعمال، وسبب من أسباب قسوة القلب، وهو مما يكرهه الله لعباده، قال عليه الصلاة والسلام: (إن الله كره لكم قيل وقال...). [رواه أحمد]

ونال الصمت نصيبًا من التوصية به من قِبَل أخيار هذه الأمة من سلفها الصالح ومن بعدهم، حتى ألّف بعضهم فيه المصنفات والأجزاء الحديثية ترغيبًا فيه وتذكيرًا بفضائله؛ لما له من حضور بيّن في مقام الآداب.

أما معنى الصمت لغةً، فقيل إنه مأخوذ من: "صَمَتَ يَصْمُتُ صَمْتًا وصُموتًا وصُماتًا: سَكَتَ، وأَصْمَتَ مثله، والتصْميتُ: التسكيتُ، ويُقال لغير الناطق: صامت ولا يقال ساكت، وَيُقَال: أَخذه الصُّمات، إذا سكت فلم يتكلم". [المعجم الوسيط]

أما في الاصطلاح، فقيل إنه: "إمساك عن قوله الباطل دون الحق".

قال النيسابوري: "ترك الكلام له أربعة أسماء: الصمت، وهو أعمّها حتى إنه يستعمل فيما ليس يقوى على النطق كقولهم: (مال ناطق أو صامت).

والسكوت: وهو ترك الكلام ممن يقدر على الكلام. والإنصات: هو السكوت مع استماع قال تعالى: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. والإصاخة: وهو الاستماع إلى ما يصعب إدراكه، كالسرِّ والصوت من المكان البعيد". [غرائب القرآن ورغائب الفرقان]

والقدوة في هذا الخلق هم الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، فنبينا محمد ﷺ كان طويل الصمت، قليل الضحك، وكان يوصي أصحابه بذلك، فقد أوصى أبا ذر فقال له: (عليك بطول الصمت، فإنه مطردة للشيطان عنك، وعون لك على أمر دينك، وإياك والضحك، فإنه يميت القلوب ويذهب نور الوجه). [شعب الإيمان]

وهذا أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- كان ممن عرف مكانة الصمت وخطر اللسان، فأخذ بطرف لسانه وقال: "هذا الذي أوردني الموارد". [رواه النسائي]

وكثرة الصمت تورث الهيبة، فعن علي -رضي الله عنه- قال: "بكثرة الصمت تكون الهيبة".

والصمت من السمت الحسن للمرء الذي ينبغي تعلمه والحرص عليه، عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- قال: "تعلموا الصمت كما تتعلمون الكلام، فإن الصمت حكم عظيم، وكن إلى أن تسمع أحرص منك إلى أن تتكلم، ولا تتكلم في شيء لا يعنيك، ولا تكن مضحاكًا من غير عجب، ولا مشاء إلى غير أرب". يعني إلى غير حاجة.

وقال عبد الله بن أبي زكريا: "عالجت الصمت ثنتي عشرة سنةً، فما بلغت منه ما كنت أرجو، وتخوفت منه فتكلمت". [الصمت لابن أبي الدنيا]

والصمت أعظم الحكمة، فعن وهيب بن الورد -رحمه الله-، قال: كان يقال: "الحكمة عشرة أجزاء: فتسعة منها في الصمت، والعاشرة عزلة الناس". [الصمت لابن أبي الدنيا]

وقال: أبو عمر الضرير: "سمعت رياحًا القيسي، يقول: قال لي عتبة: يا رياح، إن كنت كلما دعتني نفسي إلى الكلام تكلمت فبئس الناظر أنا، يا رياح، إنَّ لها موقفًا تغتبط فيه بطول الصمت عن الفضول". [حلية الأولياء]

وأكثر ما يحمل الإنسان على كثرة الكلام جهله بأن كلامه من عمله، قال عمر بن عبد العزيز: "من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه، ومن عمل بغير علم، كان ما يفسد أكثر مما يصلح". [رواه البيهقي]

والصمت وقاية من آفات اللسان، وإنْ كثر لغط العبد كثرت هفوات لسانه بكلام لا يجني منه سوى الآثام، ولقد جاء القرآن الكريم مبينًا أن الكلام محسوب على العباد؛ لأن الله تعالى جعل لهم ملائكة كتبة حافظين، قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

قال ابن كثير في [التفسير]: "﴿مَّا يَلْفِظُ﴾ أي: ابن آدم ﴿مِنْ قَوْلٍ﴾ أي: ما يتكلم بكلمة ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: إلا ولها من يراقبها معتد لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾. [الانفطار: ١٠ – ١٢]

وقال الشوكاني: أي: "ما يتكلم من كلام، فيلفظه ويرميه من فيه إلا لديه، أي: على ذلك اللافظ رقيب، أي: ملك يرقب قوله ويكتبه، والرقيب: الحافظ المتتبع لأمور الإنسان الذي يكتب ما يقوله من خير وشر، فكاتب الخير هو ملك اليمين، وكاتب الشر ملك الشمال، والعتيد: الحاضر المهيأ". [فتح القدير]

وقال السمعاني: "أي: رقيب حاضر، قال الحسن: يكتب الملكان كل شيء، حتى قوله لجاريته: اسقيني الماء، وناوليني نعلي، أو أعطيني ردائي، ويقال: يكتب كل شيء حتى صفيره بشرب الماء". [تفسير القرآن]

ومن استحضر سمع الله لكلامه وعلم أنه موقوف ومسؤول يوم القيامة عما يقول؛ كثر صمته، فعن أبي هريرة –رضي الله عنه– عن رسول الله ﷺ قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت). [رواه البخاري]

قال ابن عبد البر: "وفي هذا الحديث آداب وسنن، منها التأكيد في لزوم الصمت، وقول الخير أفضل من الصمت؛ لأن قول الخير غنيمة، والسكوت سلامة، والغنيمة أفضل من السلامة". [التمهيد]

وقال النووي: "وأما قوله ﷺ: (فليقل خيرًا أو ليصمت) فمعناه: أنه إذا أراد أن يتكلم؛ فإن كان ما يتكلم به خيرًا محققًا يثاب عليه واجبًا أو مندوبًا فليتكلم، وإن لم يظهر له أنه خير يثاب عليه فليمسك عن الكلام، سواء ظهر له أنه حرام أو مكروه أو مباح مستوي الطرفين؛ فعلى هذا يكون الكلام المباح مأمورًا بتركه، مندوبًا إلى الإمساك عنه؛ مخافةً من انجراره إلى المحرم أو المكروه، وهذا يقع في العادة كثيرًا أو غالبًا". [شرح صحيح مسلم]

وعن سهل بن سعد، عن رسول الله ﷺ قال: (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة). [رواه البخاري]

قال ابن عبد البر: "في هذا الحديث دليل على أن أكبر الكبائر إنما هي من الفم والفرج، وما بين اللحيين الفم، وما بين الرجلين الفرج، ومن الفم ما يتولد من اللسان وهو كلمة الكفر، وقذف المحصنات، وأخذ أعراض المسلمين، ومن الفم أيضا شرب الخمر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم ظلمًا، ومن الفرج الزنى واللواط". [الاستذكار]

وقال ابن حجر في شرح هذا الحديث: "فالمعنى: من أدى الحق الذي على لسانه من النطق بما يجب عليه، أو الصمت عما لا يعنيه ضمن له الرسول ﷺ الجنة ... فإن النطق باللسان أصل في حصول كل مطلوب، فإذا لم ينطق به إلا في خير سلم، وقال ابن بطال: دل الحديث على أن أعظم البلاء على المرء في الدنيا لسانه وفرجه، فمن وقي شرهما وقي أعظم الشر". [فتح الباري]

ومن ملك لسانه فقد ملك خيرًا كثيرًا، وكفى نفسه شرًا كثيرًا، ونجّى نفسه من حُفَرٍ عديدة ومزالق شتى، قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل -رضي الله عنه-: (ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه، قال: كف عليك هذا، قلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك، وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم). [رواه الترمذي]

وعن عبد الله بن عمرو-رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: (من صمت نجا). [رواه الترمذي]

***

-الصدق-

فقوة كل شيء أكثره وضوحًا للعدو والصديق، وبتطابق الأقوال والأفعال والسرائر والبواطن في الأخلاق تتأصّل الفضيلة، وهذه المطابقة تسمى صدقًا، والصدق هو حلية المؤمن في منطقه، وهو علامة له تميزه عن غيره، وهو في الأعمال سبب للقبول، وفي الأخلاق واجب حميد، ويزيد وضاءة القلوب والوجوه، ويغرس المحبة في قلوب العباد، ويُعلي الله به ذكر صاحبه بين العالمين من غير تكلّف منه لذلك، والصادق يؤخذ ما يصدر عنه محمل الجد فقوله مفعول، ووعده نافذ وتهديده أكيد، فيحظى بهذا مكانة عند المحب وحذرا من العدو.

والصدق هو الخصلة التي توصل المؤمنين إلى البر، الذي يوصل لرضى الكريم المنان سبحانه فيدخلهم أعالي الجنان، فعن ابن مسعود -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ، قال: (إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا). [متفق عليه]

صدق العزيمة والفعل..

والصّدق له عدة أبواب، أجلّها الصدق مع الله جل جلاله، والعبد الصدوق ينال خير الدنيا والآخرة بصدقه مع ربه، قال ابن القيم -رحمه الله-: "ليس للعبد شيء أنفع من صدقه ربَّه في جميع أموره، مع صدق العزيمة، فيصدقه في عزمه، وفي فعله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾. [محمد: ٢١] فسعادته في صدق العزيمة، وصدق الفعل، فصدق العزيمة: جمعها، وجزمها، وعدم التردد فيها، بل تكون عزيمة، لا

يشوبها تردد، ولا تلوُّم، فإذا صدقت عزيمته بقي عليه صدق الفعل، وهو استفراغ الوسع، وبذل الجهد فيه، وأن لا يتخلف عنه بشيء من ظاهره، وباطنه، فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة، وصدق الفعل يمنعه من الكسل، والفتور، ومَن صدَق الله في جميع أموره؛ صنع الله له فوق ما يصنع لغيره، وهذا الصدق معنى يلتئم من صحة الإخلاص، وصدق التوكل، فأصدَقُ الناس: مَن صح إخلاصُه وتوكله". [الفوائد]

وهذا الصدق هو ما رفع أبا بكر -رضي الله عنه- فَسُمي "صدّيقًا" وصار خير الناس بعد الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، فهو صادِق في إيمانه بالله وبرسوله ﷺ، إذ لم يكن يشك طرفة عين في أخبار النبي ﷺ ولا فيما يذكره من أمور الغيب، وهذا أكسبه تلك العزيمة التي ترجمتها أفعاله -رضي الله عنه-.

الصدق في الأعمال..

ومن الصدق في الأعمال ما ذكره الله سبحانه وتعالى عن أصحاب النبي ﷺ حين قال: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، فعن أنس -رضي الله عنه- قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني أصحابه- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء -يعني المشركين-، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه، قال أنس: كنا نظن أو نرى أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [البخاري].

وهذا الصدق هو الواجب حين اشتداد الأمور فلن ينجي إلا هو، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢٠-٢١].

ومن الصدق في الأفعال صدق الباطن وعزمه على الامتثال لأمر الله مهما كلف الثمن، وهو ما ذكره الله عن أصحاب بيعة الرضوان -رضي الله عنهم-، فقال: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

ومن أعظم ما جاء في الصدق في الأفعال قصة الأعرابي الذي جاء إلى النبي ﷺ فآمن به واتبعه، ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر غنم النبي ﷺ سبيًا، فقسم وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟، قالوا: قسم قسمه لك النبي ﷺ، فأخذه، فجاء به إلى النبي ﷺ، فقال: ما هذا؟ قال: (قسمته لك)، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى إلى ها هنا -وأشار إلى حلقه بسهم-، فأموت فأدخل الجنة، فقال: (إن تصدق الله يصدقك)، فلبثوا قليلًا، ثم نهضوا في قتال العدو، فأتي به النبي ﷺ يحمل قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي ﷺ: أهو هو؟ قالوا: نعم، قال: (صدق الله فصدقه). [رواه النسائي]

الصدق في الأقوال..

أما صدق الأقوال، فهي خصلة ممدوحة بالفطرة وقبل الإسلام، وقد بلغ النبي ﷺ من الصدق قبل النبوة ما جعل قومه يلقبونه بـ"الصادق الأمين"، لما كان يعرفه أهل الجاهلية للصادقين، وقد امتنع أبو سفيان -رضي الله عنه- عندما كان مشركًا من الكذب أمام

هرقل؛ حتى لا يُعيّر به عند قومه فقال: ‘‘فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذبا لكذبت عنه’’.

ومنه الصدق مع الجليس، فلا يقول إلا حقًا وإن كان مازحًا، وإن التمادي في الكذب مُزاحًا يفضي للكذب في غيره، ثم يكون الهلاك في الدين وذهاب الإيمان.

وفي قصة الصحابة الذين صدقوا رسول الله ﷺ في سبب تخلّفهم عنه يوم تبوك أكبر عبرة ودليلًا على عِظَمِ الصدق مع الله تعالى ومع الخلق، فعند البخاري ومسلم أن الصحابي الجليل كعب بن مالك -رضي الله تعالى عنه- جاء إلى النبي ﷺ حين قدم من تبوك، فصدق في تبيين سبب تخلّفه ولم يكذب؛ خوفًا من الله تعالى ورجاء عفوه، فقد قال له النبي ﷺ: (ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟) فقال: يا رسول الله، إني والله لو جلست إلى غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيت جدلًا -أي فصاحة وقوة في الإقناع-، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه -تغضب عليّ بسببه- إني لأرجو فيه عفو الله، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر في حين تخلفت عنك. قال الرسول ﷺ: (أما هذا فقد صدق).

فأنزل الله توبته بعد مدة، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]، ثم أعقبها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، إذ فيه أمر للمؤمنين أن يصدقوا في أقوالهم ويكونوا مع أهل الصدق.

والصدق منجاة في الدنيا والآخرة، ولا نجاة يوم القيامة إلا للصادقين في إيمانهم وأعمالهم مع ربهم عز وجل، وهم الذين أعد الله لهم أعظم الأجر والجزاء، قال سبحانه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

***

-سلامة الصدر-

ما يزال المؤمن يرقى بأخلاقه ويعلّم نفسه المعالي حتى يصل إلى جوهر الأخلاق ومصدرها، في تلك المضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله، إنها "القلب" أن يكون سليمًا صافيًا طيبًا نظيفًا، فتلك صفة بلغت بأقوام منازل عالية، وصلت ببعضهم أن يُبشّر بالجنة وهو ما يزال حيًا يمشي على الأرض، وهي صفة العارفين به سبحانه، وهي جاه الأكرمين المصطفين المجتبين المحمودين.

وسلامة الصدر عافية في الدنيا والآخرة، وهي من خير ما يأتي به العبد يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]، وسلامة الصدر هي تصفيته من جميع أدواء القلوب وآفاته التي يبغضها الله، وأوّلها أن يخلو القلب من الرياء وأدران الشرك وما يخدش التوحيد، فإنها أعظم ما يفسد القلب والعمل، ثم أمراض القلوب من العُجب والكبر والحقد والغل والحسد وسوء الظن وأضرابها، فمن سلم منها فقد أوتي خيرًا كثيرًا.

وسلامة الصدر إما أن تكون جبلّة في الطبع، أو مكتسبة بعد مجاهدة للنفس وسعي دؤوب، وإنه لأمر يسيرٌ على من يسّره الله عليه، وعاقبته أن يسوق صاحبه إلى الجنة بإذن الله، قال قاسم الجوعي: "أصل الدِّين الورع، وأفضل العبادة مكابدة اللَّيل، وأفضل طرق الجنَّة سَلَامة الصَّدر". [صفة الصفوة] وفي هذه الأخلاق يتنافس المتنافسون.

الفرق بين سلامة الصدر والبلَه..

وربما سمَّى بعض الناس سلامة الصدر بَلَهًا، وفي الحقيقة أن بين الأمرين فرقًا شاسعًا، يقول ابن القيّم –رحمه الله–: "والفرق بين سَلَامة القلب والبَلَه والتَّغَفُّل: أنَّ سَلَامة القلب تكون من عدم إرادة الشرِّ بعد معرفته، فيَسْلَم قلبه مِن إرادته وقصده، لا من معرفته والعلم به، وهذا بخلاف البَلَه والغَفْلة، فإنَّها جهل وقلَّة معرفة، وهذا لا يُحْمد؛ إذ هو نقص، وإنَّما

يَحْمد النَّاس مَن هو كذلك؛ لسَلَامتهم منه، والكمال أن يكون القلب عارفًا بتفاصيل الشَّرِّ، سليمًا من إرادته، قال عمر بن الخطَّاب –رضي الله عنه–: لست بِخِبٍّ ولا يخدعني الخِبُّ، وكان عمر أعقل من أن يُخْدع، وأورع من أن يَخْدع، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشُّعراء: ٨٨ – ٨٩]، فهذا هو السَّليم من الآفات التي تعتري القلوب المريضة، من مرض الشُّبهة التي توجب اتِّباع الظَّنِّ، ومرض الشَّهوة التي توجب اتِّباع ما تهوى الأنفس، فالقلب السَّليم الذي سَلِم من هذا وهذا''. [الروح]

ومن مُهِمَّات سلامة الصدر أن يسلم المؤمن من النيل ممن سبقه بخير، من لدن صحابة رسول الله ﷺ –رضي الله عنهم– فمن بعدهم من صالحي المؤمنين ومَن أحسن عطاءً في هذا الدين، قال ابن رجب: ''أفضل الأعمال سَلَامة الصَّدر من أنواع الشَّحْناء كلِّها، وأفضلها السَّلَامة من شحناء أهل الأهواء والبدع، التي تقتضي الطَّعن على سلف الأمَّة، وبغضهم والحقد عليهم، واعتقاد تكفيرهم أو تبديعهم وتضليلهم، ثمَّ يلي ذلك سَلَامة القلب من الشَّحْناء لعموم المسلمين، وإرادة الخير لهم، ونصيحتهم، وأن يحبَّ لهم ما يحبُّ لنفسه، وقد وصف الله تعالى المؤمنين عمومًا بأنَّهم يقولون: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] ''. [لطائف المعارف]

سلامة الصدر نعيم في الدنيا والآخرة..

وهو من النعيم في الدنيا والآخرة، فمن نعيم أهل الجنة ما يمنحهم الله من سلامة صدروهم، قال ربنا جلّ في علاه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، قد عافاهم الله من منغصات الدنيا وكدرها، المتمثل بالغل والأحقاد،

قال ابن عطية: "هذا إخبار من الله عزَّ وجلَّ أنَّه ينقِّي قلوب ساكني الجنَّة من الغلِّ والحقد، وذلك أنَّ صاحب الغلِّ متعذِّب به، ولا عذاب في الجنَّة". [المحرر الوجيز]

وسلامة الصدر من أسرع طرق دخول الجنة، فعن محمَّد بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: (إنَّ أوَّل من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنَّة، فدخل عبد الله بن سَلاَمٍ، فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فأخبروه بذلك، وقالوا: أخْبِرْنا بأوثق عملٍ في نفسك ترجو به. فقال: إنِّي لضعيف، وإنَّ أوثق ما أرجو به الله سَلَامة الصَّدر، وترك ما لا يعنيني). [الصمت لابن أبي الدنيا]

وقال الحافظ ابن رجب: "دخلوا على بعض الصحابة في مرضه ووجهه يتهلل، فسألوه عن سبب تهلل وجهه، فقال: ما من عمل أوثق عندي من خصلتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، وكان قلبي سليمًا للمسلمين".

وقال الأكفاني وعبد الكريم: "وأصل العبادة مكابدة اللَّيل، وأقصر طرق الجنَّة سَلَامة الصَّدر". [تاريخ ابن عساكر]

وقد كان السابقون يجعلونها ضمن وصاياهم لما لها من أثر في بركة الأعمال، فلما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة، جمع ولده، وفيهم مَسْلمة، وكان سيِّدهم، فقال: "أوصيكم بتقوى الله، فإنَّها عِصْمة باقية، وجُنَّة واقية، وهي أحصن كهف، وأزْيَن حِلْية، ليعطف الكبير منكم على الصَّغير، وليعرف الصَّغير منكم حقَّ الكبير، مع سَلَامة الصَّدر، والأخذ بجميل الأمور...". [تاريخ ابن عساكر]

وقال سفيان بن دينار: "قلت لأبي بشير -وكان من أصحاب علي-: أخبرني عن أعمال من كان قَبْلنا؟ قال: كانوا يعملون يسيرًا، ويُؤْجَرون كثيرًا. قلت: ولم ذاك؟ قال: لسَلَامة صدورهم". [الزهد لهناد بن السري]

ما يعين على سلامة الصدر..

ومن الأسباب المعينة على اكتساب صفة سلامة الصدر أمور، منها: الدعاء الذي لا تنال الرغائب ولا تدفع البلايا والأدواء إلا به، فلا منجى إلا إلى الله بالتضرع بين يديه أن يصلح القلوب ويزكي الأنفس فهو خير مَن زكاها هو وليها ومولاها، ثم الدعاء للإخوان بظهر الغيب فذاك أقوى سبل سلامة الصدر وكبت الشيطان، ولنا أسوة فيمن أثنى الله عليهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. [الحشر: ١٠]

وكان من دعاء النبي ﷺ: (رب اجعلني لك شاكرًا، لك ذاكرًا، لك راهبًا، لك مطواعًا، إليك مخبتًا أو منيبًا، تقبل توبتي، واغسل حوبتي ، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة قلبي) [أبو داوود]، و"السخيمة هي الحقْدُ في النفسِ". [شرح العيني]

ومنها: قراءة القرآن وتدبره: فالقرآن دواء لكل داء، والمحروم من لم يتداوَ بكتاب الله، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ} [يونس: ٥٧]، قال ابن القيم –رحمه الله-: "فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية وأدواء الدنيا والآخرة..." إلى أن قال: "وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء الذي لو نزل على الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطعها، فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه، وسببه والحمية منه لمن رزقه الله فهمًا في كتابه". [زاد المعاد]

كما وأن السلام من أسباب حصول المحبة التي هي الأثر البيّن لسلامة الصدر، قال ﷺ: (والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم). [رواه مسلم]

وكذلك التواضع، فإنه يدفع الأغلال والأحقاد والأضغان، قال رسول الله ﷺ: (إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد). [رواه مسلم]

سلامة الصدر والتمسك بالجماعة!

ولقد جاء في السنة وَصْفَة تداوي القلوب، فعن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ، قال: (ثلاث لا يغلُّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن الدعوة تحيط من ورائهم). [رواه الترمذي]

قال ابن تيمية: "ويغل: بالفتح هو المشهور ويقال: غلى صدره فغل إذا كان ذا غش وضغن وحقد" [مجموع الفتاوى]، وقال ابن القيم: "أي: لا يحمل الغل، ولا يبقى فيه مع هذه الثلاثة، فإنها تنفى الغل والغش، وهو فساد القلب وسخايمه، فالمخلص لله إخلاصه يمنع غل قلبه ويخرجه ويزيله جملة؛ لأنه قد انصرفت دواعي قلبه وإرادته إلى مرضاة ربه، فلم يبق فيه موضع للغل والغش". [مفتاح دار السعادة]

فسليم القلب مخلصًا، نصوحًا للمسلمين بدءًا بأئمتهم ثم عوامهم، مستمسكًا بجماعة المسلمين، حاثّا على ذلك.

فهذا الخلق ملازم لقلب المسلم التقي النقي، ومن اعتنى بهذا الخلق كفاه الله بقية الأخلاق وجاءته مهرولة إليه منقادة.

وبهذا الخلق السامي نختم سلسلة (جاه الأكارم) فتلك عشرة كاملة، جمعت أَزِمّة الأخلاق وأمَّاتها، فمن حازَها ظهرت مكانته، وحسُنت علاقاتُه، وتعالجت مشكلاتُه،

وصار أميرًا من غير إمارة، ووجيهًا من غير جاه، وإن كان أميرًا ميزته بين جلسائه، وألفيته في كل مكان خير وَافِد، ولكل خير أَكْرَمَ رَائِد.

ربنا ألهمنا رشدنا، وقنا شر نفوسنا، وأصلح سرائرنا، واجعلنا مخلصين، أنت حسبنا ونعم الوكيل، لا حول لنا ولا قوة إلا بك، لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، والحمد لله رب العالمين.

***

تم بحمد الله تعالى..

١٠ ربيع الثاني، ١٤٤٦ هـ (١٣ أكتوبر ٢٠٢٤ م)

لا تنسونا من صالح دعائكم..

فهرس